الجوع والحرية

قصة بقلم مصطفى زيات

في العاشرة صباحا ساكون حرا ، ساخرج من السجن ، ساودع الرفاق ابا سعيد ، ابا احمد ، عمر ... والاخرين .

شهرا كاملا امضيته بين جدران هذه الغرفة ، وبعد قليل ساكون حرا . يكذبون حين يقولون ان ايام السجن ولياليه طويلة ، فها انا امضيت شهرا كاملا وكانه الحلم ، ان صحتي الان احسن مما كانت عليه قبل دخولي السجن ، واعتقد ان صحة الاخرين كذلك .

انني خائف ، مع انني لم اشعر بالخوف مرة واحدة خلال شهر كامل ، وكذلك الجوع فقد نسيته ، والبرد ايضا .

كان الاكل جيدا منتظما ، والشاي متوفرا ، وكذلك السجائر ، وفوق كل ذلك كان هناك من يحدثني ويستمع لي .

كل ذلك وجدته في السجن دون مقابل ، دون مقابل ، اللهم الا بعض الاعمال التي كنت اقوم بها لمساعدة الرفاق ، اعمال بسيطة ، كنت اغسل اقداح الشاي ، او اشعل بابور الكاز ، او املأ ابريق الشاي ماء ، واحيانا اقوم بكنس ارض الغرفة ومسحها ، اعمال بسيطة كانت تشعرني بالسجن ، السجن الحقيقي ، سجن اقوى من الغرف والجدران والحديد ، وكنت اغضب ، ولكن سرعان ما ينقلب حنقي وغضبي الى عطف وحنو واقنع نفسي بان الرفاق لا يقصدون شيئا .

وعلى كل حال ففي العاشرة سينتهي كل شيء ، وساكون حرا .

هزني ابو احمد صارخا :

ـ ايه ، ما بك ، الست سعيدا .

وتابع ابو سعيد .

ـ احمد الله على الخلاص يا رجل .

وعاود ابو احمد باسما .

ـ قد لا نلتقي ، فتذكرنا بالخير

واضاف ابو سعيد .

ـ لا تهتم ، الله موجود ، والدنيا بألف خير .

قلت :

ـ لو كنا في الصيف لهان الامر .

وقال ابو احمد :

ـ صيف او شتاء ، الله كريم ، ولا تنس ان تذهب الى الحمام وتقابل الحاج محمود . سيساعدك بلا شك .

وقال ابو سعيد :

ـ ولا تنس ايضا ان تمر على مصطفى ، سيكون كل شيء على ما يرام ، فهو صديق قديم .

وساد الصمت . قدم لي ابو احمد سيجارة اشعلتها واخذت نفسا عميقا وتساءلت : لم كل هؤلاء الناس الطيبين في السجن .

هتف ابو احمد :

ـ انهم ينادونك ، تحرك . ثم امسك ذراعي ووضع في يدي مبلغا من المال قائلا :

ـ انه من الرفاق ، ليساعدك ريثما تحصل على عمل .

ولما شعر بعزمي على رده . تابع :

ـ انه دين ، سترده لنا بعدما تتحسن احوالك

ثم ضغط ذراعي وقال :

ـ وفقك الله .

وبصمت غريب ، ودعت الرفاق واحدا واحدا ، ثم رافقت رجل الامن حتى باب السجن الكبير حيث تسلمت بطاقتي الشخصية .

وخارج السجن ، رفعت راسي الى السماء واستنشقت كمية كبيرة من الهواء . ومع ان السماء كانت غائمة فقد استطعت تحديد مكان الشمس ، وكانت اول شيء اشعر بوجوده ، فاحسست بالدفء .

حركت ذراعي ثم شبكتها خلف ظهري ، ثم ابتسمت بشفقة ، ثم اعدت يدي الى جيوبي وطمرت راسي بين كتفي ، وكنت لا ازال ابتسم .

استدرت نحو اليسار ومشيت ببطء وشعرت بحاجتي لسيجارة ، بحثت في جيوبي ، ثم تذكرت انني لم اشتر علبة سجائر منذ شهر فقد تكفل الرفاق في السجن بهذا الامر .

انتقلت الى الرصيف المقابل ، وتوقفت امام احد الدكاكين .

ـ اعطني علبة سجائر ..

ـ من اي نوع .. ؟

ترددت ...

ـ (لوكي) .

وخاطبت نفسي ، خروجي من السجن مناسبة سعيدة ولا بد ان احتفل .

فتحت علبة السجائر واخذت منها واحدة ، اشعلتها بولاعتي القديمة وسحبت منها نفسا عميقا ، وشعرت بنشوة عظيمة .

ولاخفاء ابتسامي بدأت أجول بنظري من الارض الى وجوه المارة الى واجهات الدكاكين الى السماء .

وفي كل مرة كنت اغفل فيها عن نفسي يعاودني الابتسام . انني سعيد ، ولم اشعر في حياتي بمثل هذه السعادة .

وفي الشارع الذي يلتف حول القلعة وقفت اراقب اطفالا كانوا يلعبون في خندقها ، ملابسهم وسخة ، وكذلك وجوههم وايديهم . ولكنهم كانوا فرحين ، يصرخون ، ويتدافعون ، ويضحكون . بينما راح احدهم يتسلق حافة الخندق باتجاه سور القلعة ، بعد طرده من اللعب. وحاول طفل صغير النزول من الشارع الى اسفل الخندق ، ولكنه تراجع ... ثم تابعت طريقي .

وعندما بدأت السماء تمطر دخلت احد المقاهي المنتشرة حول القلعة . تذكرت ـ وانا ارتشف قهوتي ـ الاطفال الذين كانوا في الخندق ، لا بد انهم كانوا يتسابقون في تسلق حافة الخندق المؤدية الى الشارع ، ولا بد انهم كانوا يضحكون من رفيقهم الذي كان قد تسلق حافة الخندق المقابلة والمؤدية الى سور القلعة ، ولا بد ان يكون الطفل الصغير الذي تراجع عن النزول في غاية السعادة .

عضني الجوع ، دخلت احد المطاعم ، طلبت كبابا وصحنا من اللبن، اكلت ، شبعت ثم اشعلت سيجارة .

كان المطر قد انقطع . عدت للتجوال في شوارع المدينة ، انني سعيد ، انني اكره السجن اكره غسل الاقداح ، اكره كنس ومسح الارض ، لن اتلقى اوامر ـ بعد الان ـ من احد ـ لكنهم طيبون ـ . على كل حال انتهى كل شيء الان .

ساعمل ، أي عمل ، سأوفر المال ، لن أقامر ، لن أتشاجر ، لن

اعود للسجن .

ـ وسارد للرفاق نقودهم .

أسرعت الخطى باتجاه الحمام .

ـ السلام عليكم ، الحاج محمود موجود .

ـ اهلا ، ماذا تريد .

ـ معي رسالة .

اخرجتها من جيبي وقدمتها له ، فتحها وقراها ، وبعد فترة صمت .

ـ حظك قليل . بقيت صامتا ، بينما تابع :

ـ بالامس ، بالامس فقط ، كنا نحتاج الى اجير .

وعاد الصمت ، وساد فترة أطول ، ثم تابع :

ـ هل لديك مكان تنام فيه .

ـ لا .

ـ يمكنك ان تنام في الحمام ، ثم اضاف :

ـ لن اخذ منك اجرا ، ثم اضاف :

ـ وستساعدنا في غسل ارض الحمـــام ، وغسيل بعض المآزر ، ونشر بعض المناشف ، ثم اضاف :

ـ في اخر الليل قبل أن تنام .

ـ اشكرك .

وخيم الصمت ، ثم التفت يخاطب الزبائن مبتسما .

ـ يا الله يا شباب ، بعد قليل ستدخل النساء .

ثم خاطبني :

ـ لا تنس ان تأتي بعد العاشرة ، بعد العاشرة ، بعد خروج النساء .

ـ ان شاء الله . وغادرت الحمام .

عاد المطر الى السقوط ، وبدأ البرد يدب في جسمي ، وشعـرت كانني فقدت شيئا .

وداخل الفرن شعرت بالدفء ، وقدمت الرسالة لمصطفى قائلا :

ـ أبو سعيد مشتاق اليك كثيرا ويرجوك ان تزوره .

ـ سازوره قريبا ، ان شاء الله .

ـ أبو سعيد انسان طيب .

ـ لكنه لا يفكر ...

وساد الصمت .

اشتد سقوط المطر وشعرت بالتعب والانهاك ورغبت فـي مغادرة الفرن ـ لولا المطر .

طلب مني مصطفى أن أستريح فوق أكياس من القنب كانت مرمية في احدى الزوايا ، ففعلت . أشعلت سيجارة وأسندت ظهري الـى الجدار وشعرت براحة قليلة وكان البرد قد زال .

« كانت الفتاة التي تجلس امامي رائعة الحسن ، ابتسمت لها ، فابتسمت . نهضت وجلست بجانبها ، لم تتحرك ولكنها ظلت تبتسم ، امسكت يدها ، قبلت يدها ، أمررت يدي على وجهها ، غرزت أصابعي في شعرها ، لم تتحرك ولكنها ظلت تبتسم . أحطت خصرها بذراعي وعنقها بالاخرى ، ضممتها الى صدري برفق ، قبلت جبهتها ، وجنتيها ، ثغرها الذي لا يزال يبتسم .. » .

هزني مصطفى ، فانتبهت .

ـ انهض ، اننا نغلق .

ـ يا الله .

نهضت ، رتبت ثيابي ، واخرجت سيجارة اشعلتها ، ومضيـت نحو باب الفرن . ناداني مصطفى واعطاني رغيفين من الخبز .

ـ لست جائعا ، شكرا .

ـ للخبز رائحة ، والنفس تشتهي .. ولا تنس ان تمر بعد أسبوع فقد استطيع مساعدتك .

كانت الشمس قـد غابت ، وساد الظلام ، وخف المطر ولكنه لم ينقطع . وعاد البرد يدب في جسمي ، ولكن التعب قد زال .

وفي الشوارع والازقة كانت عيوني تنتقل من وجه الى وجه ، ولما التقت بوجه يشبه وجه فتاة الحلم شعرت برعشة خفيفة لذيذة ، وابتسمت ، يا له من حلم جميل .

عضني الجوع مرة ثانية ، وتذكرت الرغيفين . دخلت أحد المطاعم ، واخرجت الرغيفين من تحت قميصي وطلبت صحنا من الفول ، اكلت وشبعت وتذكرت فتاة الحلم .

بدأ المطر يتزايد ، وعاد البرد ، وبدأت أشعر بالارتجاف . الحمام لا يزال مليئا بالنساء ، عشرات النساء ، عاريات ، عاريات تمـاما ، جميلات . لو أن لي بيتا ، لو أن لي زوجة ، لو كنت أعمل ، لو كان الوقت صيفا .

الشتاء طويل ، البرد قارس وشديد ، لا بد من وجود مكـــان دافيء أمضي فيه بعض الوقت ريثما تخرج النساء من الحمام . النساء ، فتاة الحلم ، تذكرت . واستدرت بسرعة وتوجهت نحو ...

تجولت وتجولت ، وتنقلت من بيت لبيت ، ومن نافذة الـــى نافذة . استمعت لاغاني كثيرة ، لضحكات عالية .

وجوه جميلة ، عادية ، وقبيحة . نهود ، سيقان ، وزنود .

شعرت بالحرارة ، شعرت بالدفء ، شعرت بحمى ...

أعجبتني واحدة ، أشرت لها ، فنهضت وسارت الى غرفتهـا ، تبعتها ، ودخلت وراءها . كانت الغرفة خافتة الانوار . أجلت بصري في أرجاء الغرفة باحثا عن السرير الذي كان دون غطاء وقد ارتمت فوقه مخدتان ، وعلبة مناديل ورقية ، والى جانب السرير وعلى بعد قليل منه خزانة ملابس قديمة مكسورة المرآة ، وفي الطرف المقـابل رأيت عدة مقاعد ـ لا أذكر عددها ـ ، وعلى حافة النافذة المغلقـة ابريق ماء زجاجي وكاس ومنفضة سجائر ، وعلى الحائط علقت منشفة قطنية ملونة وفوقها صورة كبيرة للفتاة .

وفي وسط الغرفة مدفأة عليها صفيحة مليئة بالماء .

وكان جو الغرفة مشحونا برائحة غريبة هي خليط من روائح العطور ورائحة الفسيل المنشور على الحبال بالقرب من المدفأة .

اقتربت قليلا من المدفأة .

ـ هل تشرب قهوة .

ـ .....

خلعت حذائي وانتعلت فبقايا أخذته من تحت أحد المقاعد وبدأت أخلع ملابسي وألقيها على المقعد .

أغلقت الفتاة باب الغرفة بالمزلاج واتجهت نحو السرير وجلست على حافته وبدأت تخلع ملابسها ، وانتهت من ذلك فبلي وانحنت على جهاز التسجيل ـ الذي كان على طاولة صغيرة قرب السرير ـ تريد ادارته .

ـ من تحب من المطربين ؟

ـ .....

أتممت خلع ملابسي وبدأ نصفي الاسفل عاريا وتقدمت مـــن السريـــر .

استلقت الفتاة و ... وبدأ الجهاز يغني اغنية لا أذكرها .

ـ هل اطفيء النور ؟

ـ .....

غمرتني حمى خفيفة وشعرت بدوار ، ولكنني لم أتراجع ، و... وانتهيت .

نهضت واتجهت نحو المغسلة .

ـ هل تريد ماء ساخنا ؟

ـ .....

لبست ثيابي ، وأخرجت سيجارة أشعلتها ، كما أخرجت نقـودا أعطيتها للفتاة . واستدرت باتجاه الباب ، وسمعت الفتاة تقـــول لنفسها : لعله اخرس . وقبل أن أخرج رأيت فوق الباب قفصا فيه طائر ـ لا اعرف نوعه ـ كان نائما .

كان المطر قد انقطع والهواء ازداد برودة ، شعرت بلسعته علـى وجهي وأذني وأنفي وتبينت اثاره في أطرافي التي بدأت بالارتجاف .

علقت سيجارتي بين شفتي ودسست يدي في جيوبي ، وقلت في سري : سيكون شتاء قاسيا .

فكرت بالذهاب الى الحمام ، ولكن الوقت مبكر ، والحمام في مثل هذا اليوم البارد يكون مزدحما ، وقد تتاخر النساء ، فيجب أن أتاخر قليلا .

ازداد شعوري بالبرد ، وبدات اطرافي تهتز اهتزازا ظاهرا، وبدا صدري يعلو ويهبط بشدة وبسرعة .

لا ... البرد لا يحتمل ، ولا بد من طريقة لازالته .

دخلت احدى الحانات واشتريت زجاجة خمر وخرجت ، وفي احد الشوارع الجانبية فتحتها وشربت ، شربت حتى شعرت بدبيب الحرارة يسري في عروقي ، وكنت كلما خلا الطريق من المارة اخذ جرعة من الزجاجة فاشعر بالدفء والانتعاش . ولما فرغت الزجاجة اشتريت غيرها واتجهت صوب الحمام . ابطات في المسير ورحت اراقب النوافذ ، كان بعضها معتما والاخر مضيئا والبعض بين بين تنبعث منه انوار خفيفة ملونة ، حمراء ، خضراء ، او زرقاء . كنت ابطىء حينما اسمع ـ بين الحين والاخر ـ صوت مذياع يغني ، او وقع اقدام خلفي .

زال شعوري بالبرد فاخرجت يدي من جيوبي ورفعت راسي الى السماء ورحت اراقب القمر الذي كان يسير ببطء خلف غيمة رقيقة.

ساغسل المآزر ، وساغسل ارض الحمام ، وساغسل ثيابي ، وساغتسل وبعدها سانام . وفي الصباح سابحث ـ من جديد ـ عن عمل ، وساعمل اي عمل ، حتى اوائل الصيف . وعندها ساذهب للحصاد ، وبعدها لقطف القطن ، ساجمع المال ، لن اسرف ، لن اشرب الخمر ، لن اقامر ، لن اتشاجر ، لن ادخل السجن مرة ثانية ، وقد لا اعود للمدينة ، ولربما تزوجت ، ليس غريبا فقد اتزوج .

وسرت في كياني رعشة خفيفة لذيذة وتمركزت في شفتي على شكل ابتسامة ، كبرت وكبرت فصارت ضحكة اهتز لها صدري .

كان القمر قد خرج من خلف الغيمة وبدا واضحا .

الصيف ، الصيف . لن يكون هناك برد ، لن يكون هناك سجن ولا مآزر قذرة ولا عاهرة حبلى .

ساغتسل ، ساغسل ثيابي واغتسل ، ساغتسل .

اخرجت زجاجة الخمر وجرعت منها جرعة كبيرة ثم اعدتها الى جيب سترتي الداخلي ووضعت يدي في جيوبي ، وطمرت راسي بين كتفي ، ومشيت مسرعا نحو الحمام .

كان الحارس الليلي العجوز نائما . ايقظته . انتفض مذعورا وشتمني . لاطفته . دفعني . صرخت في وجهه . ضربني . شتمته . بدا ينفخ في صفارته . حاولت منعه . انهال علي ضربا بخيزرانة كانت معه . اخرجت زجاجة الخمر . امسكتها من العنق وكسرتها على الارض ثم ضربت بشدة اليد التي كانت تحمل الخيزرانة ، رايت دما غزيرا يتدفق ، وسمعت صراخا عاليا مبحوحا . ثم انهالت علي الضربات واللكمات و ...

استيقظت في اليوم الثاني لاجد نفسي في احد مخافر المدينة ، ثم غادرته بمرافقة رجال الامن الى دار الحكومة ، وفي رواق دار الحكومة اشتريت من احد الباعة علبة سجائر فاخرة ، ثم غادرت دار الحكومة . ومن سيارة رجال الامن التي كانت تسير بمحاذاة القلعة كنت افتش ببصري ـ في الخندق ـ باحثا عن الاطفال ، ولم اعثر عليهم مع ان الجو كان صافيا دافئا ، والشمس ساطعة حارة .

وفي السجن ، طلبت ان اعود الى غرفتي السابقة فوافقوا .

قدم لي ابو احمد وعاء فيه ماء ، غسلت يدي ، ثم غسلت وجهي ثم فمي ، ثم بللت يدي ومسحت بهما شعري ، واستنشقت كمية كبيرة من الهواء .

خلعت حذائي ومشيت الى وسط الغرفة حيث جلست على الارض واسندت ظهري الى الجدار وارخيت ذراعي بجانبي ، وعندها احضر لي ابو احمد قدحا من الشاي ، وقال :

ـ ماذا فعلت ؟ قلت :

ـ قالوا : سكر وعربدة واقلاق للراحة العامة ، واعتداء على رجل امن اثناء قيامه بوظيفته .

ابتسم ابو احمد .

اخرجت من جيبي علبة السجائر الفاخرة ، اخذت منها واحدة، وقدمت العلبة لابي احمد ، وقلت :

ـ هذه لكم ، لقد اشتريتها لكم و ... سكت .

تناول ابو احمد العلبة واخذ منها واحدة ثم اعطاها لابي سعيد ، وبدات العلبة تنتقل من يد الى اخرى ...

اشعل لي ابو سعيد سيجارتي ثم سيجارة ابي احمد ثم سيجارته، واخذت منها نفسا عميقا ، وابتسمت .

كان يغمرني شعور غريب خليط ، كنت فرحا لخلاصي من البرد والجوع والمآزر القذرة ، وكنت حزينا خائفا ان يطول سجني فيضيع موسم الحصاد والقطاف .

واشتد حزني حينما تذكرت انني لم اغتسل .

حلب

مصطفى زيات

دار الاداب تقدم

امام الباب المغلق

لفدوى طوقان

الديوان الرابع لواحدة من اكبر شعرائنا المعاصرين ، وفيه التعبير المرهف عن ذروة الاسى الذي ما فتيء يحاصر الشاعرة ويجعل قصائدها نسيج وحدها في الشعر العربي الحديث .

يصدر قريبا